

"في التسليم للعترة الطاهرة"

الظواهر التركيبية الدلالية في السلام الحجاجية – قراءة في
خطاب الإمام الرضا عليه السلام

The Structural-Semantic Phenomena in Argumentation
A Study in Imam Ar-Reda's (Peace Be Upon Him) Speech

أ.م.د. عبد الكاظم جبر عبود

Assit. Prof. Dr. Abdul Kadhim Jabur Abbood

العراق / جامعة القادسية / كلية التربية / قسم اللغة العربية

Iraq / University of Al-Qadisiyah / College of Education

Department of Arabic

Mr.abdulkadimjabur@gmail.com

خضع البحث لبرنامج الاستئلال العلمي
Turnitin - passed research

مُلَخَّصُ الْبَحْثِ:

إن النص المسؤول لا بدّ أن يكون وراءه عقلٌ يديره، فيجعله متناسقًا ومتعالقًا، كي يتوصل إلى أهدافه الخطابية، وواجب المتلقي أن يحسن قراءة هذا النص، أو أن يقاربه، والحجاج هو الوسيلة الأبرز التي تعتمد النصوص، لتحقيق الإقناع، ولذا هي تتوسّح بوسائل منطقية وأخرى لغوية خاصة، هما من الواضح بمكان، كي تضمن الإفهام والتأثير. وهذا البحث محاولة في الوقوف على أهم الظواهر التركيبية الدلالية، التي تكون قوام السلام الحجاجية في خطاب الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام)، الذي نقلته كتب الأخبار والعقائد والأحاديث، ذلك الخطاب الذي يتخذ مدارج الإقناع سبيلًا إلى الإقناع؛ ليؤدي صاحبه تكليفًا منوطًا به، ويبرئ ذمته، ويقيم الحجة على أهل الدنيا، وينجز الأمانة الملقاة على عاتقه. وقد جعلت هذه الظواهر في محاور ثلاثة، هي على التتابع: (تضافر الشرط والنفى في السلام الحجاجية)، و(تضافر الاستفهام والنفى في السلام الحجاجية)، و(التساند العطف في السلام الحجاجية)، ولكن ليس قبل أن يسبقها محورٌ أول، هو (السلام الحجاجية - المحددات والقوانين النظرية).

الكلمات المفتاحية: الظواهر التركيبية الدلالية، السلام الحجاجية، خطاب الإمام الرضا (عليه السلام)، ظاهرة التساند العطف.

Abstract :

The responsible text is to have a mind to buttress and manage to set it coherent and interdependent , so its rhetorical goals are to be unveiled . It is the duty of the recipient to read this text well, or to approach it . Argumentation is the most prominent means by which the texts are used to achieve persuasion , therefore, it is covered by special logical and linguistic means, very clear, to ensure understanding and influence. This research is an attempt to identify the most important synthetic and semantic phenomena, that form the basis of argumentative thresholds in the speech of Imam Ali bin Musa Al-Ridha (pbuh). So these phenomena are in three axes: The conjunction of the condition and the negation in the argumentative thresholds , The interrogation and negation intertwine in the argumentative stairs) and (sympathetic support in the argumentative thresholds and Argumentative Thresholds , Parameters and Theoretical Laws.

Keywords: semantic synthetic phenomena, argumentative thresholds, speech of Imam Ridha , the phenomenon of emotional support.

توطئة:

ليس ثمة خطاب إلّا وله طرفان، أحدهما: المخاطب (المرسل)، والآخر: المتلقي (المرسل إليه)، وهما شرطتا التواصل، وعماد هذه العملية، بلحاظ أن "العمل الأدبي لا يتحقق من تلقاء نفسه، وإنما استناداً إلى فعل إنجازي يقوم به قراء ومتلقون"^(١)، ومنتج النصّ هو مدير النص، وإليه تُسند نجاعته أو عدم نجاعته، مع مراعاة ظروف إنتاج النص ومتطلبات التلقي التي "تؤثر في تنظيم خطاب المنتج"^(٢)، وتتأتى أهمية الطرف الثاني من كونه ركنًا رئيسًا في تحليل الخطاب، أو لنقل "هو القراءة الثانية للنص"^(٣). ولا بدّ من القول إن هذه القراءة اللاحقة تحاول أن تكون هي القراءة الأولى، بما تتوسل به من أدوات، وقد تقاربه أو تنكص دونه، أو تلتوي في مقاربتة، أو تخفق تمامًا في المحاولة جزئيًا أو كليًا، وهذا شأن كل قراءة، من حيث كونها قراءة منفصلة عن المنتج الأول، أو القراءة الأولى.

إن النص المسؤول ليس له أن يكون بناءً عشوائيًا، وإنما وراءه عقل مدير يجعله متناسقًا ومتعالقًا - بقدر ما يطيق ويحسن - كي يتوصل إلى أهدافه الخطائية^(٤)، وواجب المتلقي أن يحسن مقارنة هذا النص، والحجاج هو الوسيلة الأبرز التي تعتمر اللغة، لتحقيق الإقناع، لذا فهو يتوشح بوسائل منطقية وأخرى لغوية خاصة، هما من الوضوح بمكان^(٥)، بمعنى أن وظيفة اللغة في جوهرها هي وظيفة حجاجية، مهما كانت، وليس لأهل اللغة إلّا أن يتواصلوا، أو لنقل: إلّا أن يتحاجّوا^(٦)، وبذا يدخل الحجاج مختلف أنواع الخطاب الديني والسياسي والاجتماعي والعلمي والأدبي، مع فارق واضح في طبيعة الحجاج وصوره ووسائله وحضوره، بوصفه فعلًا إنجازيًا^(٧). ومن هنا عدّ ما ذهب إليه بيرمان وزميله في تعريف الحجاج أشمل ممّا قدّمه اللسانيون؛ لأنّه يتضمن شكل الحجاج وغايته الخطابية، ويجمع بينهما^(٨)،

وقد ذهبنا، من قبل، إلى أن "إذعان العقول بالتصديق لما يطرحه المرسل، أو العمل على زيادة الإذعان؛ هو الغاية من كل حجاج؛ فأنجع حجة هي تلك التي تنجح في تقوية حدة الإذعان عند من يسمعها، وبطريقة تدفعه إلى المبادرة، سواء بالإقدام على العمل أو الإحجام عنه، أو هي على الأقل ما تحقق الرغبة عند المرسل إليه في أن يقوم بالعمل في اللحظة الملائمة"^(٩). بيد أن ما سبق من بيرلمان وغيره لا ينطلق من وظيفة اللغة نفسها، عبر علاقة لغوية ثنائية (حجة - نتيجة)، كما عند ديكر، بل ينطلق من علاقة بين قضيتين يُعامل معها على وفق منطق شبه صوري أو ما هو قريب منه^(١٠).

ويحاول هذا البحث الوقوف على أهم الظواهر التركيبية الدلالية، التي تكون قوام السلام الحجاجية في خطاب الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، الذي نقلته كتب الأخبار والعقائد والأحاديث، ذلك الخطاب الذي يتخذ مدارج الإقناع سبيلاً إلى الإقناع؛ ليؤدي صاحبه تكليفاً منوطاً به، ويبرئ ذمته، وقيم الحجة على أهل الدنيا، وينجز الإمانة الملقاة على عاتقه. وستكون تلك الظواهر محاور ينعقد عليها هذا البحث، ولكن ليس قبل التعريف بالسلام الحجاجية، ومحدداتها وقوانينها النظرية، عند المشتغلين بالحجاج.

المحور الأول: السلام الحجاجية - المحددات والقوانين النظرية

إن الحجاج اللغوي يتألف من متواليات قولية تطول أو تقصر، وقد يكون بعضها بمنزلة الحجة، وقد يكون بعضها بمنزلة النتيجة^(١١)، وإن الخطاب الذي يتضمن هذا الحجاج يوجه للمتلقي نوعاً محدداً من النتائج، وهو يضمّر في عمقه دعوة إلى غاية يرمي إليها^(١٢)، ولايضاح ذلك يقال مثلاً:

ق ١: كربلاء مدينة ذات بُعدٍ روحي لدى المسلمين.

ق ٢: إِمضٍ وقتاً طويلاً فيها.

في هذا الكلام المتوالي حجاج لغوي، فالقول الأول منه (كربلاء مدينة ذات بُعدٍ روحي لدى المسلمين) قائم مقامه الحجة، وليس هو كلاماً خبرياً وصفيّاً فحسب، والقول الثاني: (إِمضٍ وقتاً طويلاً فيها) هو بمنزلة النتيجة، سواء صُرح بكونها نتيجة أم لا، وسواء وجدت الروابط اللغوية مثل (إذن، والفاء) أم أُضمرت ودلّ عليها الحال^(١٣)، ومثل هذا الإضمار يدعوه بعضهم (مبدأ التيسير)، ومثل هذا الاستحضار للمضمّرات القولية يضمن التواصل على أتمّ وجه وأنجعه^(١٤)، وهكذا هو الحجاج الإنجازي عند أصحاب هذه النظرية^(١٥)، فهو منعقد أساساً على البنية القولية، وعلى أساس تواليها وترابيتها واشتغالها في بنية الخطاب الكلية، وهذا يعني أن الحجاج يعتمد على استعمال البنية الخطائية نفسها، وليس شيئاً خارجاً عنها.

ومن ثمّ يتضح أن السلام الحجاجية إنّ هي إلا "مجموعة من الأفعال القولية ذات الوظيفة الحجاجية، فتوجّه المتلقي إلى نتيجة معينة... وتصور ديكر ونظاماً للحجج قائماً على معيار التفاوت في درجات القوة والضعف وعلى أساس سلمية ممكنة بين الحجة الأكثر قوة، وبين الحجة الأكثر ضعفاً"^(١٦)، وليس أن تكون قائمة على مبدأ الصدق والكذب، وهذا أصل في الحجاج^(١٧)، ولا بدّ من القول إن السلام الحجاجية تمثّل مرحلة النضج والتطور في النظرية الحجاجية، إذ عدّت الملفوظات القولية مظهرًا من مظاهر حركية الحجاج، الذي صار النظر فيه شاملاً للروابط، والعوامل والقيم، والسلام جميعاً^(١٨).

وقد ذهب ديكرو وزميله أنسكومبر إلى أن وظيفة الحجاج تتجلى في (التوجيه)، ويتحصل ذلك في مستويين: مستوى السامع، ومستوى الخطاب الذي يقع فيه ذلك الحجاج، وأن "الآية في توجيه السامع والتأثير فيه أو مواساته، أو إقناعه، أو جعله يأتي فعلاً ما، أو إزعاجه، أو إحراج، وفي مستوى الخطاب يحصل هذا التوجيه حين يكون القول (ق ١) مؤدياً بالضرورة إلى ظهور (ق ٢)، صراحةً أو ضمناً" (١٩)، وهذا يعني أن الحجاج يقوم على متبنيات لسانية عبر (السلام الحجاجية)، تلك التي جعلها ديكرو عنواناً لمصنف مستقل، وضح فيه المقولات التي تركز عليها تلك النظرية، مثل: التوجيه الحجاجي، وترتيب الملفوظات؛ تقوية لمدى العوامل وطاقتها الحجاجية (٢٠). ولا شك أن العامل الحجاجي يؤدي دوراً في المحادثة الخطابية، ويراعى فيه الموضوع والغاية والمقام، ومن هنا يتخذ السلم الحجاجي نجاعته (٢١).

والسلام الحجاجية حاضرة في اللغة بمستوياتها جميعاً، أو لنقل بعبارة أدق إن اللغة وسيلتها في الحجاج، وهي على النحو الآتي (٢٢):

١- السلمية المعجمية: وهي أوضح من السلام التي تؤديها التراكيب اللغوية، وقد مثل لها ديكرو بالأحوال التصاعدية التي تطلق على حال الطقس: (منعش، بارد، قارس)، أو (دافئ، ساخن، حار)، أو بالكميات، والمقادير، وكل درجات التفاوت المختلفة في اللون والحركة والتأثير، صعوداً أو هبوطاً.

٢- السلمية الصرفية: وهي السلمية التي تؤدي فيها الصيغة الصرفية، ومبدأ الزيادة في البنية الاشتقاقية؛ أثراً تراتبياً، مقارنةً بما تقدّم عليها أو تأخر من الحجج، كالذي بين (صادق، صدوق، صديق).

٣- السلمية البلاغية: وهي السلمية التي تتعلق بدرجة التأثير البلاغي، من حيث:

معاني التراكيب، والحقيقة والمجاز، وأضرب التشبيه، والاستعارة، والكنائية، وغيرها. وبين كل صنف من هذه الأنواع وما يكون تحته من أقسام؛ خفاءً ووضوحاً، ولا يخفى أن الحجاج هو لعبة المعنى "وأطرف الحجاج وأنجعه ما كان المعنى فيه يتراوح بين الظهور والخفاء" (٢٣).

وللسلام الحجاجية، عند ديكر والمشتغلين بالحجاج، قوانين ثلاثة تحكمها، هي (٢٤):

١- قانون النفي: ويفيد هذا القانون عند الحجاجيين أن لو كانت ثمة حجة ما، يقدمها طرف ما، ليصل بها إلى نتيجة محددة يتغياها؛ فإن نفي حجة الطرف الأول يعني بالضرورة أن يكون النفي حجة في مصلحة نتيجة معاكسة. ويمكن إيضاح ذلك بالمثالين الآتيين:

- زيدٌ برٌّ، فلقد أحسن لوالديه.

- زيدٌ ليس برّاً، فلم يحسن لوالديه.

فإن القبول بالحجاج الذي في المثال الأول يكون نفيه بالضرورة القبول بالحجاج الذي في المثال الثاني.

٢- قانون القلب: ويذكر أصحاب هذه النظرية أن هذا القانون مرتبط بالقانون المتقدم - النفي - وتمام له، ويفيد أن يكون السلم فيه للملفوظ الحجاجي المنفي هو على العكس من السلم الحجاجي الإثباتي، كما في المثالين الآتيين:

- صارت لي زوجةٌ، بل صار لي أولادٌ، فأنا سعيدٌ.

- ليس لي أولادٌ، بل ليست لي زوجةٌ، فلست سعيداً.

فحصول المتكلم على الأولاد أقوى حجة على السعادة، من حصوله على الزوجة، في حين أن عدم حصوله على الزوجة أقوى حجة على عدم السعادة؛ من عدم حصوله على الأولاد.

٣- قانون الخفض: ويعني أنه إذا "صدق القول في مرتبة معينة من السلم، فإن نقيضه يصدق في المراتب التي يقع تحتها"^(٢٥)، فعندما نقول: (محافظة الديوانية ليست نفطية)، فإنها حجة لا تتناقض مع ما دون هذه المرتبة من حجج، نحو (محافظة الديوانية زراعية)، أو أنها (تجارية).

ومن ثم تكون السلام من المباحث التداولية التي تسهم في توجيه الحجاج، وأن البنى اللغوية هي معيار التراتبية؛ كونها تتضمن القيم الحجاجية، التي تقدمها العوامل والروابط الحجاجية، لتمضي بالخطاب إلى مداه، بمعنى أن هذه السلام هي ما يمنح الحجاج مداه، بما تشتمل عليه من أدوات ومفردات، ولا ينحصر الأمر بممارسات الذهن المنطقية، بل إنه في كل ذلك يعتمد كفاءة المتلقي التداولية، التي أساسها المواضعة الجمعية. وكل ذلك سيكون معتمداً في المحاور القادمة.

المحور الثاني: تضافر الشرط والنفي في السلام الحجاجية

أشار ديكرو إلى الظواهر التركيبية الدلالية، التي تتوشح بها السلام الحجاجية، ومن ذلك ظاهرتا الاستلزام (الشرط) والنفي، اللتان تدخلان في تفاعل دلالي وتجهان بالمتلقي إلى نتيجة، هي غاية المرسل، كما هي غاية في كل حجاج^(٢٦)، وهذه يعني أن هذا التداخل الدلالي متحصل من تضافر الرابط (إداة الشرط)، والعامل (النفي)^(٢٧).

ومن هذا التداخل ما ورد في كتاب للإمام الرضا عليه السلام إلى محمد بن عبيد، الذي كان سألته عن الرؤية، وما ترويه العامة والخاصة، وطلب أن يشرح له ذلك: فكتب

بخطه: "اتَّفَقَ الجميعُ لا تمنعَ بينهم أن المعرفة من جهة الرؤية ضرورة، فإذا جاز أن يرى الله بالعين وقعت المعرفة ضرورة، ثم لم تخلُ تلك المعرفة من أن تكون إيماناً أو ليست بإيمان، فإن كانت تلك المعرفة من جهة الرؤية إيماناً، فالمعرفة التي في دار الدنيا من جهة الاكتساب ليست بإيمان؛ لأنها ضده، فلا يكون في الدنيا مؤمن، لأنهم لم يروا الله عزَّ ذكره، وإن لم تكن تلك المعرفة التي من جهة الرؤية إيماناً، لم تخلُ هذه المعرفة التي من جهة الاكتساب أن تزول، ولا تزول في المعاد، فهذا دليلٌ على أن الله عزَّ وجلَّ لا يُري بالعين، إذ العينُ تؤدي إلى ما وصفناه" (٢٨).

ومثل هذا الحوار الذي في مكاتبه عليه السلام المتقدمة؛ يدعى عند الحجاجيين (المباحثة)، التي هي "نمط من المحاورة تكون الغاية من ورائه تحصيل المعرفة، وبالتالي فإن هذا الضرب من المحاورة يشهد على الدوام مساراً تصاعدياً" (٢٩)، والمحاوَر فيها هو المتلقي، أو لنقل (القارئ الضمني) (٣٠)، وقد التزم المرسل (المحاوَر) بشروط المحاورة، التي هي "الحياد والتجرد والسعي نحو الصدق الموضوعي" (٣١)، وحقق (مبدأ التعاون) (٣٢)، الذي أفضى إلى نتيجة مقنعة. وإيضاح ذلك حجاجياً أنه بدأ النصَّ بكلام شرطي افتراضي سُلِّمي، يقوم على حجتين، وينتهي بنتيجة ستكون هي وسيلة في سُلِّمين شرطين آخرين:

السُّلَّم الشرطي الافتراضي الأول:

↑ ن: الإيمان
ح ٢: المعرفة بالله
ح ١: الرؤية بالعين

وهذا السلم يفضي بقانون القلب إلى أن تكون النتيجة منه معكوسة (باطلة)،
والسلم الشرطي الافتراضي المترتب على النتيجة المتقدمة، هو كالاتي:

ن: لا إيمان
ح ٢: لا معرفة بالله
ح ١: الرؤية القلبية (الوجدانية)

وثمة احتمال لسلم شرطي يترتب على النتيجة المعكوسة الأولى أيضًا، فيؤدي
إلى نتيجة باطلة أيضًا، هو:

ن: لا إيمان
ح ٢: معرفة بالله
ح ١: الرؤية بالعين

وهذا الافتراض الأخير يستلزم سلمًا شرطيًا يؤدي إلى نتيجة (باطلة) أيضًا،
وهي:

ن: لا إيمان
ح ٢: لا معرفة بالقلب
ح ١: الرؤية بالعين

وملخص ما في هذه السلام الشرطية أنه عليه السلام أبطل بهذه المباحثة رؤية الله (جلّ شأنه) بالعين، لا بالقلب والعقل، فإن الايمان بالله إن كان متوقفًا على العين الباصرة؛
لزم كون الإيمان الناتج من الوجدان على معرفة الله (وجوده) ليس إيمانًا، وهذا
باطل، وإن كانت هذه المعرفة ناتجة من الرؤية بالعين فهي ليست إيمانًا أيضًا، ويلزم

منه عدم كون المعرفة به (جل شأنه) الناتجة من الأدلة، مفضيةً وموجبةً للإيمان، وهذا باطل أيضًا.

ومثل هذه المحاور ما كان في أجزاء من المناظرة التي دارت بينه عليه السلام وبين (الجالثليق) النصراني^(٣٣)، وقد استدعاه المأمون مع أعلام المتكلمين من أصحاب المقالات من الطوائف والأديان الأخرى، ومنها أنه حين التفت - في بعض المناظرة - إلى رأس الجالوت اليهودي^(٣٤) قال عليه السلام: "ألست تقرأ الإنجيل؟ قال: بلى لعمري، قال: فخذ على السفر فإن كان فيه ذكر محمد وأهل بيته وأمته فاشهدوا لي، وإن لم يكن فيه ذكره فلا تشهدوا لي. ثم قرأ عليه السلام السفر الثالث حتى بلغ ذكر النبي صلى الله عليه وآله وقف، ثم قال عليه السلام: يا نصراني إني أسألك بحق المسيح أتعلم أي عالم بالإنجيل؟، قال [الجالثليق]: نعم، ثم تلا عليه ذكر محمد وأهل بيته وأمته، ثم قال عليه السلام: ما تقول يا نصراني؟ هذا قول عيسى بن مريم عليه السلام فإن كذبت بما ينطق به الإنجيل، فقد كذبت موسى وعيسى عليه السلام، ومتى أنكرت هذا الذكر وجب عليك القتل، لأنك تكون قد كفرت بربك ونبيك وبكتابك، قال الجالثليق: لا أنكر ما قد بان لي في الإنجيل وإني لمقرّ به، قال الإمام عليه السلام: اشهدوا على إقراره"^(٣٥)

في هذا المقطع من المناظرة ارتكاز على ما يلزمه الشرط من افتراض، إيجاباً أو سلباً، بعد أن جرّ الطرف الآخر إلى منطقة مشتركة بينهما، هي (صدق الإنجيل)، وهذه المنطقة المشتركة في عُرف الحجاجيين تسمى (الموضع)^(٣٦). والإيجاب يتمثل بالسلمية الشرطية الافتراضية الآتية:

ن: إثبات نبوة النبي محمد ﷺ وصحة كتابه

ح ٢: الشهود للإمام الرضا عليه السلام بالغلبة

ح ١: في السفر ذكر لنبينا محمد وأهل بيته (صلوات الله عليهم) وأمه

وأما السلب فهو ما يفيد (قانون النفي) الذي تحققه السلمية الشرطية الافتراضية الآتية:

ن: لا إثبات لنبوة محمد ﷺ وصحة كتابه

ح ٢: لا شهود للإمام الرضا عليه السلام بالغلبة

ح ٢: ليس في السفر ذكر لنبينا محمد وأهل بيته عليه السلام وأمه.

فلما أقر الجاثليق بصدق السلمية الأولى، استلزم الشرط شرطاً آخر، وهو ما تؤديه السلمية الافتراضية السالبة الآتية:

ن: وجوب القتل للمنكر (المكذب / النافي)

ح ٢: نفي ما جاء به عيسى وموسى عليه السلام

ح ٢: نفي ما نطق به الإنجيل (السفر الثالث)

ولما أقر الجاثليق ارتفاع كل ذلك، وبهذا يكون قد توجه بالمخاطب إلى الغاية التي يريد. ويظهر ممّا تقدم أن أداتي الشرط (إن) و(متى) كانتا في سياق استعمالهما رابطتين حججيتين تفاعل كل منهما في شطر من الكلام مع عامل النفي بـ ((لم)، والفعل (أنكر))، بالاستعانة بالروابط (الواو، ثم، الفاء، لأن)، فكان ازدواج الشرط والنفي محوراً ملائماً للسلمية الحجاجية. والعوامل، بصورة عامة "تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما" (٣٧)، بمعنى أن تقوم بتوجيه المتلقي نحو نتيجة ما، وذلك بالقدح في (المواضع) التي ينتج عنها استلزام غير مستقيم، وتقوية الاستلزام المستقيم (٣٨).

ومثل ما في هذه المناظرة أيضًا ما في مناظرته (عليه السلام) مع سليمان المروزي، متكلم خراسان، في مجلس المأمون، وقد انتهى الكلام إلى كون إرادة الله صفة محدثة هي أم لا؟ فسأله الإمام الرضا (عليه السلام) في بعضها، قال "أخبرني عن السمع والبصر والعلم أمصنوع؟ قال سليمان: لا. قال الرضا (عليه السلام): فكيف نفيتموه؟! قلت: لم يُرد، ومرة قلت: أراد، وليست بمفعول له. قال سليمان: إننا ذلك كقولنا: مرة علم ومرة لم يعلم. قال الرضا (عليه السلام): ليس ذلك سواء، لأن نفي المعلوم ليس كنفي العلم، ونفي المراد نفي الإرادة أن تكون؛ لأن الشيء إذا لم يرد لم تكن إرادة، فقد يكون العلم ثابتًا، وإن لم يكن المعلوم بمنزلة البصر فقد يكون الإنسان بصيرًا وإن لم يكن المبصر، وقد يكون العلم ثابتًا وإن لم يكن المعلوم. قال سليمان: إنها مصنوعة. قال: فهي محدثة ليست كالسمع والبصر، لأن السمع والبصر ليسا بمصنوعين وهذه مصنوعة. قال سليمان: إنها صفة من صفاته لم تزل. قال: فينبغي أن يكون الإنسان لم يزل؛ لأن صفته لم تزل. قال سليمان: لا، لأنه لم يفعلها. قال الرضا (عليه السلام): يا خراساني، ما أكثر غلطك! أفليس بإرادته وقوله تكون الأشياء؟ قال سليمان: لا. قال: فإذا لم تكن بإرادته ولا مشيئته ولا أمره ولا بالمباشرة فكيف يكون ذلك؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. فلم يجر جواباً!" (٣٩)

وفيهما سلسلة حجاجية اعتمدت على (قانون المعاكسة) الشرطية، أي التي يلزم منها ما هو غير الإثبات الشرطي هنا، ومقتضى هذا القانون أن الحجة التي تفضي إلى نتيجة ما؛ يكون من الممكن -ولو افتراضاً- أن يعدّ نفيها حجة تساند نتيجة تعاكسها (٤٠)، وتمثيل بعض هذه السلّمية الحجاجية الشرطية (الإثبات والمعاكسة) كما يأتي:

ن: الإرادة محدثة

ح ٢: حدوث الإرادة

ح ١: أراد الله تعالى

وتكون بالمعاكسة المفترضة على ما يوجبه (قانون النفي):

ن: ليست الإرادة محدثة

ح ٢: عدم حدوث الإرادة

ح ١: لم يرد الله تعالى

وفي هذا الجزء من المناظرة تفعيل لتضافر رابط الشرط و عامل النفي، كما في المناظرة المتقدمة، واستعانة بروابط لغوية تناسب مقتضى السلم الحجاجي. ومثل هذا التفعيل اللغوي الحجاجي كثير في خطابه عليه السلام ^(٤١).

المحور الثالث: تضافر الاستفهام والنفي في السلام الحجاجية

الاستفهام واحدٌ من أفعال الكلام الإنشائية التي تأتي مباشرة وغير مباشرة، وتقع في ضمن مباحث "علم المعاني" وتعرف هذه الأفعال الإنشائية، بصورة عامة، بأنها "الجملة والأقوال التي لا تصف أي واقع في العالم الخارجي، فلا يمكن أن يقال عنها إنها صادقة (مطابقة لواقع ما)، أو كاذبة (غير مطابقة له) لكن مجرد النطق بها يشكل في حد ذاته فعلاً معيناً" ^(٤٢)، وتمارس أثرها التواصلية التأثيرية في المتلقي، ومن هذه الأفعال الاستفهام ^(٤٣). والاستفهام، بعدُ، عامل حجاجي يخرج لأغراض كثيرة، ولكن المهم منه هنا هو الاستفهام التقريري، وأخصّ منه الاستفهام الذي يتضافر مع النفي، فيمضيان بالسلمية إلى غايتها، وهذا هو الأسلوب الاستفهامي الأكثر حجاجية في مناظراته عليه السلام، وهو ماثل في غير المناظرات أيضاً، وغاية هذا النوع

من الاستفهام حمل المخاطب على الإقرار بما يردده المتكلم^(٤٤)، فيكون أدعى إلى إقامة الحجة عليه^(٤٥)، بمعنى أن المتكلم يهدف إلى "إلزام المخاطب على الذهاب في الاتجاه الذي يحدده له المتكلم، والسير في المنحى الحجاجي الذي رسمه له"^(٤٦)، كما في قوله تعالى: ﴿لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾^(٤٧)، وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾^(٤٨).

ومن ذلك ما ورد في الخبر المنقول عن علي بن الحسين بن فضال، عن أبيه قال: "سألت أبا الحسن عليه السلام، فقلت له: لم كُنِّي النبي ﷺ بأبي القاسم؟ فقال: لأنه كان له ابن يقال له: قاسم، فكُنِّي به، قال: فقلت: يا ابن رسول الله فهل تراني أهلاً للزيادة؟ فقال: نعم، أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: "أنا وعليُّ أبوا هذه الأمة"؟ قلت: بلى، قال: أما علمت أن رسول الله ﷺ أب لجميع أمته، وعليُّ عليه السلام منهم؟ قلت: بلى، قال: أما علمت أن عليًّا قاسم الجنة والنار؟ قلت: بلى، قال: فقليل له: أبو القاسم؛ لأنه أبو قسيم الجنة والنار، فقلت له: وما معنى ذلك؟ قال: إن شفقة النبي ﷺ على أمته شفقة الآباء على الأولاد، وأفضل أمته علي عليه السلام، ومن بعده شفقة علي عليه السلام عليهم كشفقته ﷺ، لأنه وصيه وخليفته والإمام بعده"^(٤٩).

وفيه أن الاستفهام الذي تضافر مع النفي (أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: أنا وعليُّ أبوا هذه الأمة؟)؛ استفهام تقريرى؛ يراد منه أن يكون الجواب من إنتاج المخاطب، أي أن يكون مشاركاً فعلياً في الخطاب، وفي ذلك يقول ميشال لوكيرن من السهل "أن ننفي ما يقوله من يتحدث؛ أكثر مما يسهل أن ننفي ما نستنتجه نحن عن طريق عملية تأويلية"^(٥٠)، وهذا الإقرار هو حجة أولى في سلم الحجاج النازل، وقد استعان بـ (الشاهد) الذي لا يُرد، وهو الحديث النبوي، الذي هو من الحجج القوية الجاهزة^(٥١)، وهذه الحجج "ليست من إنتاج المرسل بقدر ما هي منقولة على لسانه، ونقلها على لسانه ينبئ عن كفاءته التداولية، إذ يكمن دوره في توظيفها التوظيف

المناسب في خطابه، وبهذا فهي تعلو الكلام العادي درجة، مما يجعلها ترقى في السلم الحجاجي إلى ما هو أرفع^(٥٢)، ولم يستعمل هذا الشاهد (الحجة) إلا لأنه يعرف مكانته لدى مخاطبه، ومن هنا فهو سلطة مرجعية نافذة ذات كفاءة تداولية لديه. ثم رتب عليه حجة لاحقة أفادها الاستفهام التقريري اللاحق: (أما علمت أن رسول الله ﷺ أب لجميع أمته، وعليه منهم؟)، ليأتي الجواب بـ (بلى) أيضاً، ويفيد بأن النبي هو أب لعلّي، كما هو أب لأمته جميعاً، ثم تأتي حجة ثالثة يؤيدها الاستفهام التقريري: (أما علمت أن علياً قاسم الجنة والنار؟)، وقد استعان بالحديث النبوي شاهداً، كما في الاستفهام الأول، معولاً على كفاءة المخاطب التداولية أيضاً، ليكون الجواب لا شك، بـ (بلى)، وكل ذلك يفضي إلى نتيجة، وهي أنه إنما كُنّي بأبي القاسم (لأنه أبو قسيم الجنة والنار)، وقد عملت الروابط الأخرى على مسك الحجاج وترتيبه. ويمكن تمثيل هذه السلمية التنازلية التي أنتجها تضافر الاستفهام والنفي، في الآتي:

ح ١: تقرير الحديث (أنا وعليٌ أبوا هذه الأمة)

ح ٢: تقرير أن رسول الله ﷺ أب لجميع أمته، ومنهم عليٌ

ح ٣: تقرير حديث (أن علياً قاسم الجنة والنار)

ن: الرسول أبو علي / القاسم

ومن الحقيق بالذكر أنه لو كان جواب الاستفهام التقريري في أول السلم بـ (نعم)؛ لانتفى السلم كله وانهدم، بمعنى أن لا معنى للنزول إلى الحجة الثانية، ثم الثالثة، أو البدء بالحجة الثانية أو البدء بالثالثة، على وفق ما يقتضيه (قانون الخفض). ولكن كان تعويل الإمام الرضا عليه السلام على كفاءة المخاطب التداولية هو ما أنجح الحجاج، وأقام هذه السلمية.

ومن الأمثلة على هذا التضافر التركيبي الأخرى؛ ما جاء في الخبر أنه "دخل رجل من الزنادقة على الرضا عليه السلام، وعنده جماعة، فقال أبو الحسن عليه السلام: أرأيت إن كان القول قولكم - وليس هو كما تقولون - ألسنا وإياكم شرعاً سواء، ولا يضربنا ما صلينا وصمنا وزكينا وأقررنا؟ فسكت، فقال أبو الحسن عليه السلام: وإن يكن القول قولنا - وهو قولنا، وكما نقول - ألستم قد هلكتم ونجون؟" (٥٣)

وفيه أن أبا الحسن عليه السلام اعتمد على كفاءة المخاطب العقلية - على فرض كونها - وأعني بها المواضعات التداولية التي عليها العقلاء، وهو مع تنزله جدلاً عما يعتقد، احترز بالجملة الاعتراضية؛ حتى يبين أنه على بصيرة من أمره واطمئنان، وقد راعى (مبدأ التأدب) (٥٤)، فجعل الحجة الأولى الأقوى في السلمية الأولى المفترضة؛ في صالح خصمه الزنديق، وهي (القول قولكم)، وهي تفضي إلى حجة ثانية، هي (نحن شرعاً سواء)، التي يقتضيها الاستفهام التقريري، بيد أن الخصم انقطع ولم يجر جواباً، وانقطاعه يضمّر إقراراً وعناداً في الآن نفسه، لتكون النتيجة (نحن ناجون كما أنتم ناجون)، وهذا ما توضّحه السلمية التصاعدية الآتية:

ن: نحن ناجون كما أنتم ناجون

ح ٢: نحن شرعاً سواء

ح ١: القول قولكم

أما السلمية الثانية، وهي ما يعتقده الإمام عليه السلام فقد أجراها على ما يتطلبه (قانون القلب)، فالحجة الأولى الأقوى فيها (القول قولنا)، وتؤدي إلى حجة ثانية، هي (لسنا شرعاً سواء)، على وفق ما يقتضيه الاستفهام التقريري، الذي لم يكن له جواب، وهو يضمّر، كالذي تقدمه، إقراراً وعناداً، ومن ثم تكون النتيجة (نحن ناجون وحدنا)، كما في السلمية التصاعدية الآتية:

ن: نحن ناجون وحدنا

ح ٢: لسنا شرعاً سواء

ح ١: القول قولنا

ومن نافلة القول أن شعر المعريّ انطوى على مثل الحجاج المتقدم، وربما يكون أفاد منه، قال (٥٥):

قَالَ الْمُنَجِّمُ وَالطَّبِيبُ كِلَاهُمَا لَا تُحْشَرُ الْأَجْسَادُ قُلْتُ إِلَيْكُمَا
إِنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَالْخُسَارُ عَلَيْكُمَا

ومن هذا التقرير المستند إلى هذا التضاfer الحجاجي الذي يكون حجة أولى في سلمية حجاجية؛ ما في المناظرة التي انعقدت في مجلس المأمون، وكان قد انتقل عليه السلام إلى رأس الجالوت يشركه في الخطاب، فقال في بعضها: "يا رأس الجالوت فما يمنعك من الاقرار بعيسى ابن مريم، وقد كان يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويخلق من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طائراً بإذن الله؟! قال رأس الجالوت: يقال: إنه فعل ذلك، ولم نشهده، قال الرضا عليه السلام: أرأيت ما جاء به موسى من الآيات وشاهدته؟ أليس إنما جاءت الأخبار من ثقات أصحاب موسى أنه فعل ذلك؟ قال: بلى. قال: كذلك أيضاً أتتكم الأخبار المتواترة بما فعل عيسى ابن مريم. فكيف صدقتم بموسى ولم تصدقوا بعيسى؟! فلم يجر جواباً. فقال الرضا عليه السلام: وكذلك أمر محمد عليه السلام وما جاء به، وأمر كل نبي بعثه الله، ومن آياته أنه كان يتيمًا فقيرًا راعيًا أجيرًا، ولم يتعلم كتابًا، ولم يختلف إلى معلم. ثم جاء بالقرآن الذي فيه قصص الأنبياء عليهم السلام وأخبارهم حرفًا حرفًا، وأخبار من مضى ومن بقي إلى يوم القيامة، ثم كان يخبرهم بأسرارهم وما يعملون في بيوتهم، وجاء بآيات كثيرة لا تحصى... (٥٦).

وفي النص أن تضافر الاستفهام والنفي، وما كان منهما من تقرير؛ أسس لحجة ثانية، هي (تقرير أن الأخبار عن أصحاب موسى الثقات جاءت بذلك، ولم تشاهده)، وتسبقها حجة أولى هي (لم ترَ فعل نبيك موسى من الآيات، ولم تشاهده)، ثم تتلوها حجة ثالثة، هي (جاءت الأخبار عن الثقات أن عيسى فعل ذلك، ولم تشاهده)، وينتج عن هذه الحجج الثلاث نتيجتان، الأولى قريبة، وهي (عيسى نبي من عند الله، ولديه معجزة)، والثانية بعيدة المرمى مستلزمة، وهي أن النبي (محمد ﷺ) نبي من عند الله، ولديه معجزة)، فالإمام الرضا عليه السلام لم يقل: (عيسى نبي)، ويقطع الكلام، بل راعى (مبدأ التأدب) في الحوار، وعمل على إلقاء الحجج بهذا الترتيب؛ وراعى معه (مبدأ التعاون)، حتى يتجه بمخاطبه إلى ما يريد، ومن الجدير بالذكر أن السلمية الحجاجية، بمداهما القريب، تنتهي عند النتيجة (عيسى نبي من عند الله، ولديه معجزة)، ولكن إلفاته إلى رأس الجالوت ما كان إلا ليصير إلى نتيجة بعيدة المدى، ترتبط بالسياق الكلي للمناظرة، وهي أن النبي (محمد ﷺ) نبي من عند الله، ولديه معجزة)، بعد النتيجة الأولى هي حجة للنتيجة الثانية. وهذا ما توضحه السلمية الآتية:

ن ٢: النبي محمد ﷺ من عند الله، ولديه معجزة

ن ١: عيسى نبي من عند الله، ولديه معجزة

ح ٣: جاءت الأخبار عن الثقات أن النبي عيسى عليه السلام فعل ذلك، ولم تشاهده

ح ٢: تقرير أن الأخبار عن أصحاب موسى عليه السلام الثقات جاءت بذلك، ولم تشاهده

ح ١: لم ترَ فعل نبيك موسى عليه السلام من الآيات، ولم تشاهده

والملاحظ أن نفي الحجة، لو كان، على وفق (قانون القلب) أو (المعاكسة)؛ سيأتي على السلمية جميعاً، لكن الإمام عليه السلام، كان مدرّكاً للمواضع التي لا ينكرها مخاطبه،

وكان للروابط الأخرى وظيفة مسك الخطاب وترتيبه، كما هي في كل خطاب مسؤول. ومثل هذا التضافر التركيبي الدلالي بين عاملي الاستفهام والنفي، في السلم الحجاجي؛ حاضر في خطابه عليه السلام، في مواضع كثيرة، ممّا بابه المناظرة، أو الكلام في العقائد^(٥٧)، بيد أنه غاب تمامًا في أبواب مثل: الفقه، والدعاء، والمكاتيب، والمواظ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن الكلام في المناظرة والعقائد يتطلب مخاطبة حاضراً يشاركه في (الموضع)، كي يحصل التقرير، وعلى أساس ذلك يمضي في سلمه الحجاجي، أما في الأبواب الأخرى فلا يتطلب الأمر منه تقريراً، بل لا يتطلب حواراً ألبتة.

المحور الرابع: التساند العطفي في السلام الحجاجية

قد تتألف الملفوظات الحجاجية من أكثر من حجة، وتأخذ نسقاً حجاجياً معيناً، وهي بهذا التناسق التركيبي، تكون على أحد حالين، أحدهما: أن تجتمع في توجهها نحو نتيجة معينة مساندة أو معاندة، والآخر: أن تختلف فيكون بعضها مسانداً وبعضها الآخر معانداً، بمعنى أن يكون المعاند مسانداً لما يعارض النتيجة الأولى^(٥٨)، ومثال اجتماع الحجج في توجه واحد مشترك، قولنا: (هذا الكتاب مفيدٌ، وثمرته مناسبٌ؛ لذلك سأشتريه)، وواضح أن الحجتين المتعاطفتين فيه متساندتان، وهما تسوقان إلى النتيجة نفسها. أما قولنا: (هذا كتابٌ مفيدٌ، لكن ثمنه باهظٌ) فهو يضمّر نتيجة تفيد (لذلك لا أشتريه)، ويتضح فيه أن الحجتين المتعاطفتين متعاندتان^(٥٩). وربما تنتظم الحجج في كلام الفصحاء انتظاماً بلاغياً، علاوةً على ما فيها من قيم حجاجية، سواء أكانت جملاً أو مفردات، محققةً ضرورياً بلاغيةً متنوعة، مثل: التناسب والائتلاف، أو مراعاة النظير، أو اللف والنشر، وغيرها^(٦٠)، وإن المهارة الأسلوبية تعدّ من أهم عوامل التأثير؛ لأنها تقوي الحجاج وتبرزه^(٦١).

ومن هذا التساند العطف الذي يتمثل في السلام الحجاجية؛ ما ورد في بعض خطبة له عليه السلام في التوحيد، وكلها مبنية على العطف، قال: "... من قال: حتم؟ فقد غيَّاه، ومن غيَّاه فقد غاياه، ومن غاياه فقد جزَّاه، ومن جزَّاه فقد وصفه، ومن وصفه فقد ألحد فيه" (٦٢)

والملاحظ أن الجمل الشرطية التي تصدرها (من) بعضها يقوم على بعض، ويتعالق بحرف العطف (الواو) ويتساند، ويكون حجة لما بعده، لينتهي إلى النتيجة التي يؤديها جواب الشرط في الجملة الشرطية الأخيرة، ومثل هذا يسمى (الربط السببي)، الذي هو واحد من تقنيات العملية الحجاجية، وهدفه الربط بين أمرين متتابعين، أو تحصيل سبب من حدث معين، أو أن يكون ذلك الربط تكهنياً في الوصول إلى نتائج (٦٣). والذي يهمننا من هذا الربط - في هذا المحور - الربط بحرف العطف بين البنات الشرطية المكتملة، وإلا فإن كل بنية شرطية هي في الحقيقة سلمية حجاجية قائمة بنفسها. ويمكن تمثيل هذه السلمية التنازلية بما يأتي:

- ح ١: قول: حتم؟
ح ٢: قد غيَّاه
ح ٣: من غيَّاه
ح ٤: قد غاياه
ح ٥: من غاياه
ح ٦: قد جزَّاه
ح ٧: من جزَّاه
ح ٨: قد وصفه
ح ٩: من وصفه
ح ١٠: قد ألحد فيه
ن: قد ضل من هذا اعتقاده

إذ إن كل زوج متتابع من الحجج يعطف عليه بزواج متتابع، بصورة من التساند السببي، وصولاً إلى غاية المرسل الإقناعية. ويتبين أن هذه السلمية الهابطة قائمة على مبدأ (التعدي العلائقي) بين الحجج، وإن "من أهم علاقات التعدية ذات الصبغة الحجاجية شبه المنطقية علاقة التضمن... وهي العلاقة المنطقية التي تبين أن قضية تتضمن قضية أخرى" (٦٤)، وواضح أيضاً أن بنية الحجاج فيها تدرج تحت خاصية شكلية صورية، وهذه الخاصية "تتصف بها ضروب من العلاقات التي تتيح لنا أن نمّر من إثبات أن العلاقة الموجودة بين (أ) و (ب) من ناحية، و (ب) و (ج) من ناحية أخرى؛ هي علاقة استنتاج، وأن العلاقة نفسها موجودة بالتالي بين (أ) و (ج)" (٦٥)، وهذا يعني أن العلاقة تتعدى من (أ) إلى (ج) عبر خاصية (الاستعاضة) الرياضية. وبالعودة إلى عناصر السلمية التي في كلام الإمام عليه السلام نقول - بناءً على هذا - إن من قال: حتم؟ فقد ضلّ في اعتقاده. ومن الجدير بالذكر أن البدء بأيّ زوج شرطي، في هذه السلمية، يصح معه ما تحته، وفقاً لـ (قانون الخفض)، ووفقاً لـ (قانون النفي) فإن السلمية تنقلب إلى ما هو عكسها، وهذا ما يتطابق مع مفهوم (المخالفة) عند الأصوليين (٦٦).

ومثل هذا التساند العطفّي كثير في خطبة التوحيد التي منها النص المتقدم، في غير الشرط، كالذي في قوله: "أول عبادة الله تعالى معرفته، وأصل معرفة الله توحّده، ونظام توحيد الله نفي الصفات عنه" (٦٧)، وقد يكون التساند على غير ما تقدم، مجرداً من الربط السببي، كالذي في قوله: "فليس الله عرف من عرف بالتشبيه ذاته، ولا إياه وحد من اكتنّه، ولا حقيقته أصاب من مثله، ولا به صدق من نهاه، ولا صمد صمده من أشار إليه، ولا إياه عنى من شبهه، ولا له تدلّل من بعّضه، ولا إياه أراد من توهمه" (٦٨)، ويتّجه الخطاب في كل هذا إلى نتيجة مفادها أن: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (٦٩).

وليس هذا التساند منحصرًا في بابه العقائد، بل هو منبث في أبواب أخرى كالفقه

والدعاء، والوعظ، ومن ذلك أنه كتب عليه السلام إلى محمد بن سنان فيما كتب من جواب مسائله "حَرَّمَ اللهُ قَتْلَ النَّفْسِ لَعْلَةَ فسادِ الْخَلْقِ فِي تَحْلِيلِهِ لَوْ أَحْلَى، وَفَنَائِهِمْ وَفَسَادِ التَّدْبِيرِ، وَحَرَّمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَقُوقَ الْوَالِدَيْنِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ التَّوْقِيرِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالتَّوْقِيرِ لِلْوَالِدَيْنِ، وَكُفْرَانِ النِّعْمَةِ، وَإِبْطَالِ الشُّكْرِ، وَمَا يَدْعُو مِنْ ذَلِكَ إِلَى قَلَّةِ النَّسْلِ وَانْقِطَاعِهِ؛ لِمَا فِي الْعُقُوقِ مِنْ قَلَّةِ تَوْقِيرِ الْوَالِدَيْنِ وَالْعُرْفَانِ بِحَقِّهِمَا، وَقَطْعِ الْأَرْحَامِ، وَالزَّهْدِ مِنَ الْوَالِدَيْنِ فِي الْوَلَدِ، وَتَرْكِ التَّرْبِيَةِ لَعْلَةَ تَرْكِ الْوَلَدِ بَرَّهْمَا، وَحَرَّمَ اللهُ تَعَالَى الزَّنا؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْفَسَادِ مِنْ قَتْلِ الْأَنْفُسِ، وَذَهَابِ الْأَنْسَابِ، وَتَرْكِ التَّرْبِيَةِ لِلْأَطْفَالِ، وَفَسَادِ الْمَوَارِيثِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ وَجْهِ الْفَسَادِ، وَحَرَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَذْفَ الْمُحَصِّنَاتِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ فسادِ الْأَنْسَابِ، وَنَفْيِ الْوَلَدِ، وَإِبْطَالِ الْمَوَارِيثِ، وَتَرْكِ التَّرْبِيَةِ، وَذَهَابِ الْمَعَارِفِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْكِبَائِرِ، وَالْعِلَلِ الَّتِي تُوْدِي إِلَى فسادِ الْخَلْقِ، وَحَرَّمَ أَكْلَ مَالِ الْيَتِيمِ ظُلْمًا، لَعْلَلْ كَثِيرَةٌ مِنْ وَجْهِ الْفَسَادِ، أَوَّلُ ذَلِكَ: إِذَا أَكَلَ الْإِنْسَانُ مَالَ الْيَتِيمِ ظُلْمًا، فَقَدْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِهِ، إِذِ الْيَتِيمُ غَيْرُ مُسْتَعْنٍ، وَلَا يَتَحَمَّلُ لِنَفْسِهِ، وَلَا قَائِمٌ بِشَأْنِهِ، وَلَا لَهُ مَنْ يَقُومُ عَلَيْهِ وَيَكْفِيهِ كَقِيَامِ وَالِدِهِ، فَإِذَا أَكَلَ مَالَهُ فَكَأَنَّهُ قَدْ قَتَلَهُ وَصَيَّرَهُ إِلَى الْفَقْرِ وَالْفَاقَةِ، مَعَ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ لَهُ مِنَ الْعُقُوبَةِ ..."^(٧٠). وواضح في النص الكثير من السلام الفقهيّة الحجاجية، التي تقوم كلّ واحدة فيها على حجج متتابعة متساندة، وهي توجّه المخاطب إلى النتيجة التي تقدمت كلّ سلّم حجاجي، وهو (التحريم) المعين، وعلى سبيل المثال فإن النتيجة (تحريم الزنا) إنما كانت بحجج عاطفية متساندة، وهي كما في السلمية الآتية:

ح ١: الفساد من قتل الأنفس

ح ٢: ذهاب الأنساب

ح ٣: ترك التربية للأطفال

ح ٤: فساد الموارد

ح ٥.... إلخ: ما أشبه ذلك من وجوه الفساد

ن: تحريم الزنا

ومن التساند العطفِي أيضًا ما في دعائه ﷺ: "اللَّهُمَّ الْعَن قَتْلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَقَتْلَةَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ابْنِ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. اللَّهُمَّ زِدْهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ، وَهَوَانًا فَوْقَ هَوَانٍ، وَذُلًّا فَوْقَ ذُلٍّ، وَخِزْيًا فَوْقَ خِزْيٍ..."^(٧١)، وواضح في جزئه الثاني الارتكاز على الدلالة المعجمية لـ (عذاب)، و(هوان)، و(ذل)، و(خزي)، وكلها من حقل دلالي معجمي واحد، وقد أسهم العطف في تساند الدلالة وتكثيفها، لتكون النتيجة أن (الطرد من الرحمة)، كما في السلمية الآتية:

ح ١: زدْهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ

ح ٢: زدْهُمْ هَوَانًا فَوْقَ هَوَانٍ

ح ٣: زدْهُمْ ذُلًّا فَوْقَ ذُلٍّ

ح ٤: زدْهُمْ خِزْيًا فَوْقَ خِزْيٍ

ن: الطرد من الرحمة

ومثل هذا العطف الذي فيه تكثيف للدلالة المعجمية المتقاربة؛ ما في دعائه: "اللَّهُمَّ فَرِّقْ جَمْعَهُمْ، وَشَتِّتْ أَمْرَهُمْ، وَخَالَفْ بَيْنَ كَلِمَتِهِمْ، وَبَدِّدْ جَمَاعَتَهُمْ..."^(٧٢)، فأفعال الأمر (فَرِّقْ)، و(شَتِّتْ)، و(خَالَفْ)، و(بَدِّدْ)؛ هي أفعال متقاربة معجميًا، ويتَّجه بها العطف إلى نتيجة مفادها أن: (لا تكون لهم قوة)، على نحو ما في السلمية التنازلية المتقدمة، ويقضي (قانون النفي) إلى عكس الحجج، وانقلاب النتيجة إلى ما هو ضدها. ومثل هذا العطف التساندي كثير في خطابه ﷺ^(٧٣).

الخاتمة:

توافر خطاب الإمام الرضا (عليه السلام) على شروط الحوار الناجع، محققاً بمبدأي (التأدب) و(التعاون) غايته الحجاجية، وقد استطاع أن يبدأ المخاطب بمنطقة مشتركة بينهما (موضع)، ويستدرجه ويوجهه إلى نتيجة يتغيّاها الخطاب. وكان تصافر رابط الشرط وعامل النفي واحداً من الظواهر التركيبية الدلالية التي انطوت عليها السلام الحجاجية، وكان محوراً ارتكازياً في كثير منها، إذ إن هذا التصافر يتّجه بالمخاطب نحو نتيجة محددة، ومنه ما كان يهدف إلى القدح بـ (المواضع) التي ينتج عنها استلزام غير مستقيم، ليجعله في مصلحة الاستلزام المستقيم، الذي هو نتيجة الحجاج.

وكان التصافر التركيبي الدلالي بين عاملي الاستفهام والنفي، في السلم الحجاجي؛ حاضراً في خطابه (عليه السلام)، في مواضع كثيرة، مما بابه المناظرة، أو الكلام في العقائد، بيد أنه غاب تماماً في أبواب مثل: (الفقه)، و(الدعاء)، و(المكاتيب)، و(المواعظ)، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن الكلام في المناظرة والعقائد يتطلب مخاطباً حاضراً يشاركه في (الموضع)، كي يحصل التقرير، وعلى أساس ذلك يمضي في سلمه الحجاجي، أما في الأبواب الأخرى فلا يتطلب الأمر منه تقريراً، بل لا يتطلب حواراً ألبتة.

ومن الظواهر التركيبية الواضحة التي تقوم عليها السلام الحجاجية؛ ظاهرة التساند العطفی، وقد كانت بنية الخطاب فيها متدرجة تحت خاصية (التعدي العلائقي)، وتبين فيها أن كل حجة، بهذا العطف، تساند الحجة التي قبلها، وهكذا دواليك، لو طال المركب العطفی. وقد تبين أيضاً أن هذا التساند قد يركز على الدلالة المعجمية للألفاظ المحورية، التي تنطوي عليها كل حجة في السلم.

هوامش البحث :

- (١) النص وتفاعل المتلقي في الخطاب الأدبي عند المعري: حميد سمير: ٣٧.
- (٢) علم لغة النص - المفاهيم والتجاهات: د. سعيد حسن بحيري: ٢٥.
- (٣) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق - دراسة تطبيقية في السور المكية: صبحي إبراهيم الفقي: ١/ ١١٠.
- (٤) ينظر: النص الغائب - تجليات التناص في الشعر العربي: محمد عزام: ٤٨.
- (٥) ينظر: اللسانيات والحجاج - الحجاج المغالط (في ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته - دراسة نظرية تطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة): حافظ إسماعيلي علوي ومحمد أسيداه: ٣/ ٢٧٠.
- (٦) ينظر: دور الحجاج في التواصل اللساني (في ضمن كتاب: دراسات معاصرة في اللغة والأدب والتواصل): محمد بوزكي: ١٢٠.
- (٧) ينظر: الخطاب والحجاج: أبو بكر العزاوي: ٩.
- (٨) ينظر: استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية: عبد الهادي الشهري: ٤٥٦.
- (٩) نقلاً عن: استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية: ٤٥٦-٤٥٧.
- (١٠) ينظر: نظرية الحجاج في اللغة (في ضمن كتاب: الحجاج في التقاليد الغربية): شكري المبخوت: ٣٥٢.
- (١١) ينظر: اللغة والحجاج: أبو بكر العزاوي: ١٦.
- (١٢) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه: عبد الله صولة: ٣٣.
- (١٣) ينظر: المظاهر اللغوية للحجاج - مدخل إلى الحجاجيات اللسانية: رشيد الراضي: ٧٧.
- (١٤) ينظر: المصدر نفسه: ٧٧-٧٨.
- (١٥) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: طه عبد الرحمن: ١٥٥، الحجاج في القرآن: ٣٣.
- (١٦) النظرية الحجاجية: محمد طروس: ١٩٣-١٩٤.
- (١٧) ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة: د. محمد سالم محمد الأمين الطلبة: ١٩٤.
- (١٨) ينظر: نظرية الحجاج في اللغة: ٣٥٢.
- (١٩) الحجاج والاستدلال الحجاجي: إسماعيلي عليوي حافظ: ١٥٣.
- (٢٠) ينظر: العوامل الحجاجية في اللغة العربية: د. عز الدين الناجح: ١٢١-١٢٢.
- (٢١) ينظر: السلام الحجاجية في القصص القرآني - مقارنة تداولية (أطروحة): بو سلاح فايزة: ١١٩.

- (٢٢) ينظر: العوامل الحجاجية في اللغة العربية: ١٢٣-١٢٩.
- (٢٣) المصدر نفسه: ١٢٨.
- (٢٤) ينظر: اللغة والحجاج: ٢٢-٢٥.
- (٢٥) اللسان والميزان: ٢٧٧.
- (٢٦) ينظر: المظاهر اللغوية للحجاج: ١١٨.
- (٢٧) يعدُّ الحجاجيون الشرط رابطاً من الروابط، وذلك لأنه أداة أساسية تمكّن من تأليف عبارة مركبة من عبارات أبسط، وعدُّوا النفي عاملاً؛ لأنه أداة تتصل بالقضية فتحدث فيها تحويلاً في قيمتها، من حيث الصدق والكذب. (ينظر: المظاهر اللغوية للحجاج: ٩٩).
- (٢٨) مكاتيب الأئمة (عليهم السلام): جمع: علي الأحمد الميانجي: ٥ / ٢٧.
- (٢٩) الحجاج والمغالطة: رشيد الراضي: ١١٤-١١٥.
- (٣٠) القارئ الضمني من وضع (آيزر)، ويريد به القارئ المشارك في إنتاج النص في بلورة المعنى، ويمتلك سلطة على صاحب النص، فهو يراعيه ويتوقعه، ودوره مائل في النص. (ينظر: النظرية الأدبية المعاصرة: سلدان رمان: ١٦٣-١٦٤).
- (٣١) المصدر نفسه: ١١٥.
- (٣٢) مبدأ التعاون هو مبدأ تداولي يراد منه أن يُعبر المرسل عن قصده واضحاً بلا فضولٍ أو نقصان، فیراعي (الكم)، و(الكيف)، و(المناسبة)، و(النوع أو الطريقة). (ينظر: استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية: ٩٦-٩٧).
- (٣٣) الجاثليق: كلمة معربة من أصل يوناني (كاثوليکوس)، وتعني: رئيس الأساقفة، وهو دون البطريرك وأعلى من المطران. ينظر: المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وآخرون: ١ / ١٠٧.
- (٣٤) رأس الجالوت: وهي في اللفظ الآرامي (ريشي جالوتا)، وفي اللفظ العبري (روش جولاه)، وتعني رئيس اليهود في بلاد الرافدين، آنذاك. ينظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: د. عبد الوهاب المسيري: ٤ / ٨٨-٨٩.
- (٣٥) عيون أخبار الرضا: الشيخ الصدوق: ١ / ١٢٤.
- (٣٦) الموضوع: هو القدر المشترك والمسلّم به بين طرفي الخطاب، وبذا يكون القاعدة التي تضمن الانتقال إلى مرحلة حجاجية لاحقة. (ينظر: المظاهر اللغوية للحجاج: ١٩٠-١٩٣).
- (٣٧) اللغة والحجاج: ٢٧.
- (٣٨) ينظر: العوامل الحجاجية في شعر البردوني (بحث): ألطاف إسماعيل الشامي: ٤٢٣-٤٢٤.
- (٣٩) عيون أخبار الرضا: ١ / ١٤١.

- (٤٠) ينظر: المظاهر اللغوية للحجاج: ١١٨.
- (٤١) ينظر: عيون أخبار الرضا: ١/ ١٤٦، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢/ ٢٣٥، ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٨٥، مكاتيب الأئمة (عليه السلام): ٥/ ٨٠، ٢٧٨، ... إلخ.
- (٤٢) الخطاب والحجاج: أبو بكر العزاوي: ٥٤.
- (٤٣) ينظر: التداولية عند العلماء العرب: د. مسعود صحرابي: ١١.
- (٤٤) ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها: فضل حسن عباس: ١٩١.
- (٤٥) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٣.
- (٤٦) الحجاج في اللغة: ديكر: ٩٠، نقلاً عن: (حجاجية الاستفهام التقريرية في مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج (بحث): كمال الزماني: ١٤٢).
- (٤٧) الشرح: ١.
- (٤٨) التين: ٨.
- (٤٩) عيون أخبار الرضا: ٢/ ٢٩٩. وفي (بحار الأنوار للمجلسي: ١٦/ ٩٥) اختلاف في بعض الألفاظ.
- (٥٠) الاستعارة والحجاج (بحث): ٨٨.
- (٥١) ينظر: إستراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية: ٥٣٧.
- (٥٢) المصدر نفسه: ٥٣٧.
- (٥٣) عيون أخبار الرضا: ١/ ١٠٨.
- (٥٤) مبدأ التأديب: هو مبدأ تداولي يُراعى فيه قاعدة التعفف أو قاعدة التخيير أو قاعدة التودد، أو أن تراعى أكثر من قاعدة من هذه القواعد الثلاث، كي يحصل التواصل على أحسن وجه ممكن. (ينظر: استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية: ٩٧- ١٠١).
- (٥٥) اللزوميات: ٢٠٦.
- (٥٦) عيون أخبار الرضا: ١/ ١٢٩- ١٣٠.
- (٥٧) ينظر: عيون أخبار الرضا: ١/ ١٠٨، ١٣٠، ١٣١، ١٤١، ١٩٨، ... إلخ.
- (٥٨) ينظر: المظاهر اللغوية للحجاج: ٩٠.
- (٥٩) ينظر: المصدر نفسه: ٩١.
- (٦٠) ينظر: الترتيب والمتابعة: د. أمير فاضل سعد: ٤٩.
- (٦١) ينظر: الحجاج والاستدلال الحجاجي: ١٠٦.
- (٦٢) عيون أخبار الرضا: ١/ ١١٩.

- ٦٣) ينظر: بلاغة الإقناع - دراسة نظرية تطبيقية: عبد العالي قادا: ١٧١.
- ٦٤) في نظرية الحجاج - دراسات وتطبيقات: د. عبد الله صولة: ٤٧.
- ٦٥) المصدر نفسه: ٤٦.
- ٦٦) مفهوم المخالفة عند الأصوليين: هو "ما يكون مدلول اللفظ في محل السكوت مخالفاً لمدلوله في محل النطق، ويسمى دليل الخطاب" الإحكام في أصول الأحكام: الآمدي: ٦٩ / ٣.
- ٦٧) عيون أخبار الرضا: ١ / ١١٩ - ١٢٠.
- ٦٨) المصدر نفسه: ١ / ١٢٠.
- ٦٩) الشورى: ١١.
- ٧٠) من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق: ٣ / ٥٦٥.
- ٧١) مكاتيب الأئمة: ٥ / ١٢٨ - ١٢٩.
- ٧٢) المصدر نفسه: ٥ / ١٢٩.
- ٧٣) ينظر: مكاتباته: ٧٧، ٨٠، ٨١، ٨٤، ٨٧، ١٢٣، ١٢٤، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٧٨، ... إلخ.

- قائمة المصادر والمراجع:
- القرآن الكريم.
- *الأمدي، علي بن محمد (ت ٦٣١هـ).
- ١٤٠٢هـ. الإحكام في أصول الأحكام: تحقيق: عبد الرزاق عفيفي. المكتب الإسلامي، دمشق - بيروت. ط ٢.
- * الشهرى، عبد الهادي. ٢٠٠٤م . إستراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية. دار الكتاب الجديد، بيروت. ط ١.
- *المجلسي، محمد باقر (ت ١٠٣٧هـ). ١٩٨٣م. بحار الأنوار. دار إحياء التراث العربي، بيروت. ط ١.
- *قاداد، عبد العالي. ٢٠١٦م. بلاغة الإقناع - دراسة نظرية تطبيقية. دار كنوز المعرفة، عمان. ط ١.
- *عباس، فضل حسن. ١٩٩٧م. البلاغة فنونها وأفنانها. دار الفرقان، إربد. ط ٤.
- *صحراوي، د. مسعود. ٢٠٠٥م. التداولية عند العلماء العرب. دار الطليعة، بيروت. ط ١.
- *سعد، د. أمير فاضل. ٢٠١١م. الترتيب والمتابعة. عالم الكتب الحديث، إربد. ط ١.
- *محمد، د. محمد سالم. ٢٠٠٨م. الحجاج في البلاغة المعاصرة - بحث في بلاغة النقد المعاصر. الأمين الطلبة، دار الكتاب الجديد، بيروت. ط ١.
- *صولة، عبد الله. ١٩٨٧م. الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه. دار الفارابي، بيروت. ط ١.
- *حافظ، إسماعيلي عليوي. ٢٠١١م. الحجاج والاستدلال الحجاجي. دار ورد الأردنية، عمان. ط ١.
- *الراضي، رشيد. ٢٠١٠م. الحجاج والمغالطة - من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار. دار الكتاب الجديد، بيروت. ط ١.
- *العزاوي، أبو بكر. ٢٠٠٧م. الخطاب والحجاج. دار الأحمديّة، الدار البيضاء. ط ١.
- *بوزكي، محمد. ٢٠١٦م. دور الحجاج في التواصل اللساني (في ضمن كتاب: دراسات معاصرة في اللغة والأدب والتواصل). عالم الكتب الحديث، إربد. ط ١.
- *الفقي، صبحي إبراهيم. ٢٠٠٠م. علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق - دراسة تطبيقية في السور المكية. دار قباء، القاهرة. ط ١.
- *بحيري، د. سعيد حسن. ٢٠٠٤م. علم لغة النص - المفاهيم والاتجاهات. مؤسسة المختار، القاهرة. ط ١.
- *الناجح، د. عز الدين. ٢٠١١م. العوامل الحجاجية في اللغة العربية. دار نهى، مكتبة علاء الدين، صفاقس. ط ١.
- *الصدوق، الشيخ أبو جعفر بن بابويه (ت ٣٨١هـ). ٢٠١٢م. عيون أخبار الرضا. دار المتقين، بيروت. ط ١.
- *صولة، د. عبد الله. ٢٠١١م. في نظرية الحجاج - دراسات وتطبيقات. دار الجنوب، تونس. ط ١.
- *عبد الرحمن، د. طه. ١٩٩٨م. اللسان

- والميزان أو التكوثر العقلي. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء. ط ١.
- *علوي، حافظ إسماعيلي. محمد أسيداه. ٢٠١٣م. اللسانيات والحجاج - الحجاج المغالط (ضمن: الحجاج مفهومه ومجالاته - دراسة نظرية تطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة): تحرير وإشراف: حافظ إسماعيلي علوي. ط ١.
- *المعري، أبو العلاء (ت ٤٤٩هـ). ١٩٦٩م. اللزوميات أو لزوم ما لا يلزم: عناية: عمر أبو نصر. الشركة العربية للتوزيع، دمشق. ط ٢.
- *الراضي، رشيد. ٢٠١٤م. المظاهر اللغوية للحجاج - مدخل إلى الحجاجيات اللسانية. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء. ط ١.
- *مصطفى، إبراهيم. وآخرون. د.ت. المعجم الوسيط. دار الدعوة، استانبول. ط ١.
- *١٣٨٥هـ. مكاتيب الأئمة (عليهم السلام) - الجزء الخامس: جمع: علي الأحدي الميانجي، تحقيق: مجتبي الفرجي. مؤسسة دار الحديث العلمية الثقافية، قم. ط ١.
- *الصدوق، ابن بابويه القمي. ١٤٠٤هـ. من لا يحضره الفقيه: تحقيق: علي أكبر الغفاري. منشورات جماعة المدرسين، قم. ط ٢.
- *المسيري، د. عبد الوهاب. ١٩٩٩م. موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية. دار الشروق، مصر. ط ١.
- *عزام، محمد. ٢٠٠١م. النص الغائب - تحليلات التناس في الشعر العربي. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق. ط ١.
- *سمير، حميد. ٢٠٠٥م. النص وتفاعل المتلقي في الخطاب الأدبي عند المعري. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق. ط ١.
- *رامان، سلدان. ١٩٩٧م. النظرية الأدبية المعاصرة: ترجمة: سعيد الغانمي. دار الشروق، القاهرة. ط ١.
- *المبخوت، شكري. د.ت. نظرية الحجاج في اللغة: (في ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم): تحرير: حمادي صمود. منشورات كلية الآداب - منوبة، تونس. ط ١.
- *طروس، محمد. ٢٠٠٥م. النظرية الحجاجية. دار الثقافة، الدار البيضاء. ط ١.
- الأطاريح والبحوث الأكاديمية:
- *لوكرين، ميشال. ١٩٩١م. الاستعارة والحجاج: ترجمة: عبد الطاهر وعزيز، بحث منشور في مجلة المناظرة. العدد الرابع.
- *فايزة، بو صلاح. ٢٠١٥م. السلام الحجاجية في القصص القرآني - مقارنة تداولية. أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة وهران.
- *الشامي، أطفاس إسماعيل. ٢٠١٥م. العوامل الحجاجية في شعر البردوني. بحث منشور في مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد. العدد ٤٣.